الكتب

الجبل الملهم

La Montagne inspirée

لناظمه الشاعر اللبناني « شارل القرم »

للأستاذ خليل هنداوى

ألفتُ ألا أكتب عن كتاب إلا بعد ركود الضجة التي تقوم حوله ، سواء عندى أكانت ضجة استحسان أم ضجة استهجان ، ثقة منى بأن النسمة الهادئة تكن ما لا تكن الريح العاتية . والآن وقد هدأت الضجة حول ديوان الجبل الملهم ، وقرّ ضمير صاحبه بعد أن أحرز على جائزة « ادغاربو » الفرنسية ، واطمأن وجدانه للحفلة الرائعة التي سيخطب فيها أدباء لبنان ، مرحبين بشاعر تغنى بجمال لبنان ! وخلاصة تلك الضجة التي قامت والتي ستقوم عبارات ثناء بدون كيل ، وجمل ولاء بلا وزن ، ترفع « شارل القرم » إلى ذروة دونها الذرى التي تغنى بها وتحدث بجمالها ، وكيف لا يرفع النبوغ أصحابه فى بلاد يعرف أهلها معنى النبوغ ويرعون حق النبوغ ويقدرون قدر النبوغ ؟

تناولت ديوان « الجبل الملهم » من بين دواوين كلها عيون رانية إلى ، يستنجز أصحابها منى وعداً بالكتابة عنها ، فآثرت الالتذاذ بديوان يحدثني - فى الصيف - عن الجبل الملهم ، فأهملت من هم أدنى إلىّ وعكفت على الجبل الملهم أتلوه بشوق وغبطة ولذة . وقد شغلت نفسى بتأمل الأمثلة الفنية فيه ، كاملة هنا متوسطة هناك ناقصة هنالك ، وأنا برغم هذا التفاوت فى مراحله لم أدع لغبطتى مجالاً لهزيمة

هنالك أجزاء متفككة عملت على وصلها بخيالى ، وهناك اضطراب كثير فى ألحان بعض الأوزان التي جاءت كثرة تنوعها زيادة فى التشويش ، فلا تكاد تهدأ الأذن إلى لحن حتى يطلع لحن آخر تنبو عنه . فحملت ذلك إلى نقص فى الكفاءة الفنية التي تحتاج إلى تمرين كبير ، وهنالك بعض تشابيه تمجها آذان أهل البلاد أنفسهم ، لأنها لا تمازج روح لغتهم ، ولا توائم نفس عبقريتهم ، كتشبيه الشمس « بصابون السحاب » ، وهنالك ضياع المثل الأعلى الذى يتبعه الشاعر بحيرة ، يتبعه بقلب موزع مضطرب ، فلا يدرك ما هو هذا المثل ولا يدرى أين يجده . لا يعتمد على عقله ولا يثق بروحه . يحارب بعض التقاليد ويؤمن ببعضها إيماناً أعمى : يتطرف فى كل شيء يحبه أو ينفر منه . كأنما قلبه لا يغلب عليه اعتدال ولا استقرار

هذه بعض صفات تطالعك من الديوان وددتُ أن أتوسع فيها توسعاً فنياً ، ووددتُ أن يكون بحثى متعلقاً بها ، وقفاً عليها ، لولا ظاهرة خطرة غريبة كامنة فى احدى الثنايا ، ما وقفتُ عليها حتى ارتعشتُ وعاودنى ألم عنيف وشك فى المستقبل . فتركت تلك التعليقات الفنية التي تتعلق بأصحابها وجابهت هذه الظاهرة الاجتماعية التي لها خطرها فى حياتنا وبيئتنا وقوميتنا

تلوت هذه الأبيات التي يتحدث بها عن اللغة العربية :

« إننا ننطق اليوم لغة جاءت من آسيا
قد فرضها علينا القتل والرعب
وباطلاً نضع فيها الفن والشعر
والعلم والإيمان » !

« إننا لن ننظر إلى العربية
نظرنا إلى أخ يُدعى إلى منزل أبيه
إن هذه الزهرة الصحراوية قد تقبلتها حدائقنا
تحت ضغط حكومة قاسية »

« قبلناها وهذبناها
وأدمجناها باعتنائنا الشديد

ولكن الاسلام لا يرضى بأن تكون هذه اللغة المرفوعة على جباهنا — لنا »

« إن هذه الكلمات الغريبة « اللغة السريانية » التي يتلقنها أبناؤنا
لم تكن يوماً غريبة عنا

بل يكاد يخيل إلينا أن قلوبنا
تذكر يوماً نحتها فيه »
« ولكن هؤلاء الذين يجحدون أصلنا اللاصق بنا . . .[1]
هؤلاء المنفصلين عنا ، المسلوخين من أذرعنا
الأغنياء بالنفي . . .
هؤلاء يحتقرون أصلهم . كما يفعل الأغراء العاقون الناكرون الاحسان »

تلوت هذه الفقرات وأنا أكذب نفسي وأتهمها . أحقاً أرى صاحب الجبل الملهم يتنصل من اللغة العربية ، ويعتبرها زهرة غريبة نبتت طفيلية في حدائق لبنان ؟ أحقاً يرى صاحب الجبل الملهم أن هذه اللغة قد فرضت على أهل لبنان بالسيف والدم ؟ فاذا كان الشاعر لم يكتب له نصيب ولا سهم في هذه اللغة لا في نطق ولا كتابة ، فما له يعمل على التنكر منها وضربها في الصميم ! وما بال أصحابنا اللبنانيين يشايعونه على هذا . وهم علموا ما للعربية من فضل وما أثر . وعلموا أن الاسلام لم يفرضها عليهم بالقتل والضرب . وإنما فرضت نفسها وعملت على فرض نفسها . ومتى كانت اللغات تلين لارادات الأفراد ؟ وهل السريانية أخت العربية لو كان في أجلها فسحة تذوقت رداها ؟ وماذا في السريانية من أدب وفن يتعلق بأحشاء لبنان ، ويصطبغ بدم لبنان ؟

وأما أن الشاعر لا يريد الكتابة بالعربية لأنه لا يراها جديرة بأن تكون وعاء حكمته وفنه وشعره ، فهل عجزت اللغة عن ضم شتات أفكاره ؟ وهي التي لم تعجز ولن تعجز عن أفكار من كان لهم شأنهم وخطرهم ، إلا أن تكون أفكاره مما لا تحيل به العقول . ولكن هو الشنآن

كنا نريد أيها الشاعر وأنت لا تنطق بهذه اللغة أن تحترم على الأقل كيانها ، ولا تدس عليها دساً يسخر منه الأجانب أنفسهم . كنا نريد أن يكون لك بأدباء المهجر أسوة حسنة : أولئك الأدباء الذين اصطلحت عليهم عوامل الغربة والانقطاع . وظلوا واعين للفتهم حافظين لحرمتها عاملين على رفع ألويتها . وقد علمت منهم الجيد السباق في لغته واللغة الأجنبية التي اصطنعها . كجبران ونعيمة والريحاني وكثير من أمثال هؤلاء في المهجر وغير المهجر ممن تفتحت لهم من الآفاق ما تفتح لك ، ولان لهم من عبقرية غيرهم ما لان لك

وأما أن الشاعر يود العودة الى إحياء الروح الأولى وهي الروح الفينيقية ، شأن المصرية الفرعونية . فالمصريون الفرعونيون أنفسهم لم يفكروا يوماً في نفي اللغة العربية من بين ظهرانيهم ، ولم يجدوا في بقاء العربية ما يحول بينهم وبين التمصر الذي أرادوه

اضطراب — في لبنان — في المثل العليا والتفكير ، واختلاف في الثقافة والمنحى . كأنما بيئة تفككت أجزاؤها وانطوى كل جزء على نفسه بدون وحدة منتظمة ولا جامعة ملتئمة . كل حزب يمشي ولا يدري أين يمشي وأي هدف يقصد

وحدوا يا قوم تفكيركم واعرفوا ما تطلبون ، فاننا حتى اليوم لا ندري مثلكم الأعلى ولا ندري أي منهج تقصدون ؛ وأنقذوا لبنان قبل أن تقتله محبتكم ، فالمحبة المنقسمة على نفسها هي أشد خطراً من الكره والنفور . وليكن لكم مثل أعلى تحجون إليه وتعملون على إظهاره في بيوتكم ومدارسكم ، وفي مجامع جدكم ولهوكم ، ينشأ عليه صغاركم ويشب عليه فتيانكم

أما أولئك الذين ينتظرون أن يهيموا غداً في الحفلة التكريمية لصاحب الجبل الملهم ، أينتظرون أي اكليل يحمله اليهم ، وأي اكليل يحملونه اليه ؟ اكليله لهم اكليل احتقار اللغة العربية ، واكليلهم له مبايعته على ذلك . اكليله « قبلات لبنانية على شفاه اللغة الفرنسية »[1] ، واكليلهم الدعاء لحب لبنان ورافع جبهة لبنان والمبشر بنبوغ لبنان . أحبوك يا لبنان وادعوا محبتك لأنفسهم حتى خنقوك بالأقساط وأدرجوك بالأكفان !

لبنان الذي يشبه اليوم « برج بابل » بأديانه ولهجاته ومذاهبه ، لا يوحد بين أجزائه إلا هذه العربية ، وإنما توحد بينها توحيداً تقليدياً لا يعمل على الايمان به قلب ولا يؤمن به دم . فاذا انهارت هذه السارية التي تتحد عليها أجزاء لبنان تعم الفوضى داره ويفشو فيه روح التمزق . وأصحابنا بعد هذا كله يريدون أن يجمع بينهم هذا النشيد : « كلنا للوطن . . . كلنا للعلا . . . كلنا للعلم » . وقد علم العلم والعلا والوطن أن لا مكان لهم في المكان الذي تتقلص فيه اللغة ولا يحترم لها كيان ، وتُنهان فلا يهب لنصرتها أعوان

تفرقوا ما استطعتم في ثقافتكم ومثلكم ، فما أشبه الليلة بالبارحة

خليل هنداوي

(١) من هم هؤلاء ؟

(١) إشارة إلى البيت الذي ختم به الشاعر ديوانه